التعليم قديماً وحديثاً في سورية (١)

المدرسة لا غنى عنها في كل هيئة اجتماعيَّة ولذلك ترى تاريخها مشغولاً في القدم . نعم ان مظاهرها ونظاماتها كانت تختلف باختلاف الازمنة والامكنة التي وجدت فيها ولكن ذلك لم ينفِ كون القصد منها تهذيب الشبيبة واعدادها لاعمال الحياة المستقبلة

والتعليم من حيث هو فنٌّ باصولٍ امرٌ حديثٌ تنبهت اليهِ الخواطر في اوربا منذ نحو ثلاثمئة سنة . على انا اذا رجعنا في التاريخ نجد ان بعض الفلاسفة القدماء اشاروا الى هذا الامر ومنهم افلاطون ومن اقوالهِ (وقد ورد في خطبة استف هرفرد التي عربها المقتطف سنة ١٩٠٤) " ان التعليم التصحيح موسيقى النفس ورياضة البدن وان حسن السلوك فرعٌ منهُ والشعر اساسهُ وان يكن الشعراء لا يصلحون لتعليم ولا لتهذيب . وان الغرض منهُ ترقية الفضيلة وهو اوّلُ الاشياء واجلها "

ولكن لانَّ الكتبة الاقدمين لم يقوموا في زمنٍ واحدٍ ولم تكن الهيئة الاجتماعيَّة مستعدةً لتعمل بافكارهم ظلَّت اقوالهم ساكنة حتى فجر التاريخ الحديث حينما اخذت اوربا تنهض من تحت انقاض القرون الخالية وتنتبه للاكتشاف والاختراع وتسعى في تحسين الاحوال المدنيَّة والاجتماعيَّة . ومما يُبحث فيهِ كيفية تعليم الاحداث فكتب في ذلك عدد من الفلاسفة والمعلمين فكان لما كتبوهُ شأن كبير عند ارباب المدارس ومديريها . ومن الذين كتبوا في هذا الموضوع ملا لكثون وهو احد مشاهير معلمي القرن السادس عشر ومن اقوالهِ " على المعلمين ألاَّ يظنوا انهم في مجمع علماء افلاطون بل في هيكل الله وتدنيسهُ ذنبٌ عظيم . وليست حياة المدرسة كحياة الحكومة بل هي اثمن لدى الجنس البشري لانهُ لا اشرف من انقياد النفس الى معرفة الله والاداب الحسنة "

ومنهم كومنيس (Comenius) وهو من اعظم معلمي القرن السابع عشر ومما قالهُ " ينبغي ان يبدأ التعليم بملاحظات الاشياء نفسها وليس بمجرَّد وصفها وعلى المعلِّم ان يتدرَّج في تعليمهِ من البسيط الى المركَّب ومن المعلوم الى المجهول "

ومنهم لوك (Locke) الفيلسوف الانكليزي من فلاسفة القرن السابع عشر ايضاً وقد الَّف كتباً عديدة في التهذيب ومن اقوالهِ " ان مفتاح التهذيب موجودٌ في كتابات

(١) تلي في جمعية « حلقة الاداب » بالمدرسة الكلية السورية في بيروت في ١٧ ايار سنة ١٩٠٦

القدماء " ومنها " يجب الشروع في تعليم الولد منذ نعومة اظفاره فيبدأ اولاً بتمرين الجسم تمريناً يجعله مطيعاً لافعال العقل ثم يتمرّن العقل ليصير قادراً على غلبة اهواء النفس. لان القصد من التهذيب ان يكون الانسان حكيماً قادراً على إدارة اشغاله بعزم ناظراً الى اعمال الحياة نظر الخبير باحوالها جاداً وراء الفضائل وحب الشهرة " ومن اقواله " ان الاولاد ينظرون وهم في سن الطفولة الى والديهم كحكّام مطلقين ولكن متى ترعرعوا يجب ان ينظروا الى والديهم كاصدقاء اعزاء يحترمونهم ويحبونهم فانهُ يندر ان ينبغ رجلٌ عظيم من الاولاد الذين تقع عليهم قصاصات صارمة في طفوليتهم فيلزم تجنُّب ضرب الصغار الّا اذا قضت الظروف في حالة العناد او ما اشبه "

ومنهم روسو من كتّاب القرن الثامن عشر وفلاسفته ألّف كتابهُ المشهور (اميل) وهو يتضمّن افكاراً سامية في درس طبائع الصغار فانهُ درس احوال الاغنياء والفقراء وادرك شعورهم ومقاصدهم وعيوبهم

وبستالوتسي (Bestalozzy) من كتاب القرن الثامن عشر ايضاً وقد قضى حياتهُ يساعد اهل سويسره المظلومين وقد كتب على ضريحهِ " الكل لغيرهِ ولا شيء لهُ " ومعظم مدارس هذه الايام شيدت على مقتضى افكارهِ

اما الذين كتبوا في القرن التاسع عشر في التهذيب فكثيرون والان نورد خلاصة من اقوالهم ومعظمها لفيلسوف هربرت سبنسر الانكليزي المشهور قال " ان التهذيب هو إنماء جميع قوى الولد إنماء تاماً . واسمى نوعٍ من التهذيب هو الذي يدفع المتعلم الى مواصلة تهذيب نفسهِ اي انهُ يتخذ ما تعلمهُ اساساً يبني عليهِ بعد خروجهِ من المدرسة والتربية ينبغي ان تكون مناسبة لطبيعة الولد وسنهِ ونموّهِ وتقدمهِ . ويلزم ان يرى في الولد روح الحنو والمحبة للآخرين والاشتراك معهم في مسرّاتهم وضرّائهم وعلى المربي ألّا يستعمل امراً يدعو المربّى الى احتقار نفسهِ فيجب ان تكون القصاصات عادلةً مناسبة للذنوب واما الطاعة فيلزم ان تكون ارادية ومن يطع لكونهِ خائفاً من القصاص فهو عبد طاعة عمياء . والتهذيب ليس امراً ظاهرياً بل هو تدريب الانسان كيف يعيش عيشة حقيقية وكل تعليم لا ينشئ في الولد قوة على ضبط اهوائهِ الفاسدة فهو تعليم ناقص . فعلى المعلم ان يعتقد في صدر التلميذ ان الادب الحقيقي هو احترام النظام وحقوق الآخرين . وارعب شيء هو ترك الصغار بايدي الجهّال من الخدم والآباد والامهات والمعلمين . وكم من رجل لا يثق بامرأتهِ في وضع الملف لدابتهِ تراهُ يكل اليها امر تربية ولدهِ كان الدابة لديهِ اهم من ولدهِ . ومن اهم الامور في التهذيب

تنبيه القوى العقلية . فان افتقار الولد للانتباه هو نتيجة بلادة المربين لا بلادته . فيبغي تربية الحواس ليكون الولد قادراً على الافتكار والنظر قال الفيلسوف رسكن " اذا وُجد مئة يحسنون التكلم فلا يوجد بينهم اكثر من واحد يحسن الافتكار واذا وُجد الف يحسنون الافتكار فلا يوجد بينهم اكثر من واحد يحسن النظر "

ايها الرصفاء انكم هذه بعض نتف عن التعليم من اقوال مشاهير القدماء والمحدثين اوردتها امامكم تمهيداً للدخول في موضوعنا الخصوصي ألا وهو التعليم قديماً وحديثاً في سورية وايضاحاً لذلك آتي الان على وصف مدرستين سوريتين الواحدة قديمة والثانية حديثة ولكي يكون الوصف افعل في النفس اجعل للمدرستين علاقة بنفسي فاقول

ربيت في مدرسة في احدى القرى الحقيرة وكانت غرفتها ضيقة ومحفة مظلمة بلا مقاعد فكان الواحد منا يحضر معهُ قطعة حصير او شيئاً آخر وكنا نجلس على الارض مقوسي الظهور وفي حضن كلٍّ منا كتابهُ . وكان المعلم يجلس امامنا مقطب الجبين و يبدو عصا طويلة فكنا نسترق النظرات اليهِ والخوف آخذ منا مأخذهُ وكنا نتعلم عندهُ المزامير فاذا حفظها احدنا نقد عليها شيئاً معلوماً فلذلك كان يضغط علينا ظنّاً منهُ ان عقل الولد يلزم ان يحشى بالمزامير دفعةً واحدة فكنا نقضي في المدرسة من الصبح الى المساء فلم نعرف فرصةً ولا راحة الاَّ عند الذهاب لجلب الغذاء من بيوتنا لان الشرط كان يقضي باطعام المعلم على حساب التلامذة وكثيراً ما حاولت الهرب من ذلك الاسر على غير طائل

ولم يكن في المدرسة صفوف وكان اذا غلط احدنا غلطة ابتدرهُ المعلم بالعصا او بالبسط او باللطم او بشدّ الاذن وغير ذلك من انواع الشتونة والاهانة التي تحقر التلميذ في عيني نفسهِ وتزيدهُ عمى فوق عمى فيمتزج عويلهُ بقراءتهِ واذا رأى ولداً ضجر من الدرس فبدلاً من تنشيطهِ بكلمات اللطف كان يهوي عليهِ بالضرب او بالرفس . ولم يكن لهُ ثقة بنا فكان يشدد علينا الملاحظة في كل امر وعندما كانت تعرض لاحدنا حاجة ضرورية خارجاً كان يقف امامهُ و يطلب اذناً بعد اليد فيبتدرهُ المعلم بضربة فيخرج متلوياً من شدة الالم . والخلاصة ان المدرسة كانت سجناً مخيفاً والمعلم سجاناً مستبدّاً طاغياً لا رحمة في قلبهِ ولا شفقة بل لا نبالغ اذا قلنا ان حالة المجرمين في السجون كانت ارقى من حالتنا ولذلك كرهنا المدرسة والعلم والمعلمين وكنا نتمنى لو تفتح الارض فاها وتبتلعنا لنتخلص من تلك العذابات

على ان اللوم لم يكن كلهُ على المعلم لان اهلنا اطلقوا لهُ حق التصرف بنا واعتقدوا معهُ

ان العصا دواء لكل داء فيعالج بها الكسل والتراخي وتوسيخ الكتب وابلادة والعناد والكذب وكل نوع من الامراض العقلية والادبية

خرجت من هذه المدرسة ناقماً عليها وعلى المعلم وعلى اهلي وعلى العالم بأسره . ولم اكد اخرج منها حتى ادخلت في مدرسة اخرى انشأها المرسلون الاميركيون ولما وقع نظر المعلم علينا هشّ وبشّ وتأهل بنا وهذه اول مرة شاهدت معلماً يشّ ويترحب بتلميذ ثم اجلسني بجانبه وطلب مني ان اقرأ بعض اسطر فقرأت فوضع يده على كتفي مشجعاً فشعرت عند ذلك بزوال همّ كبير عن صدري وقلت ان هذا المعلم غير ذاك وهذه المدرسة غير تلك وعند ما اخذ يعلمني الحركات وضبط الالفاظ بحسبها مع ايضاح المعنى وبعض مبادىء الحساب اكتشفت انهُ يوجد في الدنيا علوم غير المزامير وعما زاد رغبتنا في المدرسة ان المعلم كان يسمح لنا بفرص ويلعب معنا ولما كان راتبهُ ليس من الاهالي كان قلما يبالي بانتقاداتهم على اعطاء الفرص ولعب الاولاد وغير ذلك من الامور الحديثة التي لم يألفوها . ولم يمر عليّ في هذه المدرسة سوى بضعة اشهر حتى صرت اقرأ مضبوطاً واعرف مبادئ الحساب

أيها السادة . وصفت مدرستي الاولى ليس لاظهر لكم انها كانت احط مدارس زمانها كلاً وانما قصدت بذلك ان أبين طرفاً من حالة التعليم الوطني في بلادنا من عهد ليس ببعيد فان معلمي الاول ربما كان من صفوة معلمي زمانهِ وانهُ انما كان يفعل ما يطلبهُ منهُ ضميرهُ واهل التلامذة وربما كان يحب اساليبهُ افضل اساليب للتهذيب . على انا اذا تأملنا نجد انهُ لا يزال الى الآن في زوايا سورية خبايا من هؤلاء المعلمين ولا نبالغ اذا قلنا ان القسم الاكبر من معلمي بلادنا غير اهل للجلوس على كراسيّ التهذيب والتعليم لان معظم الصفات اللازمة للمعلمين الاكفاء لا توجد فيهم وامثال هؤلاء يضرون الجيل اكثر مما ينفعونهُ

وقد ذكرت ما ذكرت عن مدرستي الثانية لابين ان احتكاكنا بالارساليات الاجنبية رقى على نوع ما حالة التعليم في بلادنا من حيث المادة والاسلوب ولا يزال هذا الارتقاء جارياً من يوم الى آخر . ولكن هنا مسئلتان وهما

(١) ما عمق هذا الارتقاء

(٢) ما اتساع دائرة هذا الارتقاء

وتمهيداً للجواب على هذين السؤالين نقول انهُ قضي على بلادنا لاسباب عديدة ان تكون مجتمع مذاهب ومشارب واذواق متنوعة . وعليهِ فان ارساليات التعليم التي اتت الينا

من اوربا واميركا اذا كان تأثيرها في وجهات مختلفة فالفرق النصرانية مالت كلٌّ منها الى ما يوافق مشربها من تلك الارساليات فزاد اختلاف النغمات في طنبور مشاربنا واذواقنا . ولما كانت عوامل التربية في سوريا أجنبية وكنا في حاجة اليها لقلة الوسائط الوطنية كان لا بدَّ لنا من درس الارساليات الاجنبية لانها موارد تعليمنا وتهذيبنا . وهذه الارساليات قسمان الاول رهبنية والثاني علمانية

اما الرهبنية فدعاتها رهبان وراهبات قدموا بلادنا وانشأوا فيها مدارس للصبيان والبنات واخذوا يستدرون لها الاموال من بلادهم ولا ينكر ما لهؤلاء من الايادي البيضاء في رفع شأن الانسانية فكم علّموا من جهال وربوا من يتامى متروكين فلهم على الوطن ديون ادبية عظيمة الّا اننا مع كل هذا لا نجهل أن تعليم هؤلاء المرسلين تعليم رهبنيٌّ يقصد به سوق المتعلم سوقاً طرقٍ خصوصية لا يتأتى عنها النفع الوطني المطلوب ولذلك ترى الممالك الكاثوليكية نفسها مثل فرنسا والنمسا انكرت على الاكليروس اساليبهم في التعليم واخذت لهم الحكومات اساليب جديدة والدين رفضوها منهم أغلقت مدارسهم واستولت على اوقافهم

اما العلمانية التي اتت الينا فمعظمها اذا لم نقل كلها مكسونية . فهذه تختلف نظامات مدارسها عن تلك لانها تعتمد على تقوية القاعدة اكثر من الحافظة فيخرج المتعلمون فيها اهل عملٍ في الهيئة الاجتماعية يستطيعون الخوض في ميدان الاعمال ومناظرات الحياة . ولذلك ترى السوريين عموماً اخذوا يوجهون افكارهم في هذه الايام الى تعليم اولادهم في مدارس هذه الارساليات

فاذا امعنا النظر في ما بسطناه الآن نستطيع ان نجيب على المسئلة الاولى فالجواب عليها انها تكاد تكون نهضة اجنبية لا وطنية . وحالتنا تختلف عن حالة اليابانيين مثلاً لان اولئك يرسلون شبانهم الى اوربا واميركا ليتعلموا و يعودوا الى بلادهم فيديروا بعضهم مدارس البلاد بانفسهم فيبثوا في تلامذتهم روح وطني حقيقي

والجواب على المسئلة الثانية ان دائرة هذا الارتقاء ضيقة خلافاً لما توهم البعض من ان النهضة عامة . فهي تكاد تكون محصورة في النصرانية وسبب ذلك ان الارساليات التي قدمت سورية انما هي اجنبية تربطها كما اسلفنا بالفرق النصرانية رابطة الدين ولذلك تهافتوا عليها وكثيروا مدارسهم الوطنية على اساليبها . اما الامة الكبرى في البلاد اي الامة الاسلامية فهذه لاسباب قديمة في التاريخ لم ترَ نفسها ميّالة الى إدخال اساليب الافرنج الى مدارسها . والجامع الازهر نفسه وهو اكبر جامعة اسلامية لا تزال اساليبه قديمة ولا

نصيب كبيراً فيه لعلوم الرياضية والطبيعية بالنسبة الى العلوم الكلامية . على ان الحكومة المصرية الحالية اخذت تسعى في ادخال الاساليب الجديدة الى الازهر وغيره من المدارس القديمة ولا تسل عن البركات التي يحصدها الوطن من ذلك اذ يخرج من هذه المدارس مئات سنوياً قادرون على رفع شأن البلاد

ولا بدَّ لنا في بحثنا هذا من الالتفات الى هذه الكلية . فالذي يعرف الكلية منذ بضع سنوات ويقابلها بما هي عليه الآن يجد فرقاً كبيراً ليس في عدد التلامذة فقط بل في مواد التعليم والاساليب الجديدة . وهذه المدرسة هي ام المدارس الانجيلية في بلادنا لانها تحذو حذوها في كل امر . وليس ذلك فقط بل مدارس سورية برمتها الاجمال تمثل بالكلية وسوف تسير كلها على اساليبها وسبب ذلك ان تلامذة هذه المدرسة لفيفٌ من عناصر البلاد المختلفة فمتى خرجوا منها لا بدَّ من تأثيرهم في تحسين نظام التعليم في مدارس طوائفهم المتنوعة . وهي وان تكن اجنبية فقد بنيت في هذه البلاد لترقية شأن سورية

والآن اختم خطابي هذا ببعض نصائح وارشادات جمعتها عن اشهر الكتبة المحدثين بشأن فن التعليم لعلها تفيدنا في مهنتنا

(١) قد يمكن للانسان ان يعمل عملاً ميكانيكياً وقلبهُ وعقلهُ بعيدان عنهُ ولكن هذا لا يتهيأ لهُ في معاملة الانسانية حيث يحتاج الى اظهار شعوره بعينيه وشفتيه وصوته ويديه

(٢) على المعلم ان يجذب نحوهُ كبار المدرسة اذ يمكنهُ ان ينشئ بواسطتهم رأياً عاماً وهذا يهون عليه ادارة المدرسة

(٣) اذا شعر التلميذ ان القصد من احد القوانين مجرَّد حب السلطة تفرمتهُ وتنتج عن ذلك تعب . فالطاعة يلزم ان تكون عن رضى القلب وعليه فلا نحاول تكليف التلامذة بالطاعة العمياء بل لنطالبهم بالطاعة لقانون يرونهُ لخيرهم . ولا يحسن تكثير القوانين والنظامات المدرسية

(٤) اتخذ التلامذة موضوع ثقتك وكن مخلصاً صادقاً مستقيماً واعلم ان التلامذة يراقبون المعلم ويدرسونهُ برغبة وهم مهما تخلَّق باخلاق غير اخلاقه فلا بدَّ من ظهوره امام تلامذته كما هو فعليه ان يكون حسب ما يريدهم ان يكونوا

(٥) اذا فعل التلميذ امراً مستقبحاً فعلى المعلم ألاَّ يضيع رشدهُ . لان قوَّة المعلم الادبية تتضاعف اذا ضبط نفسهُ في الاحوال المهيجة . والحذر من ان يكون القصاص انتقاماً وتشفياً فدع التلميذ يشعر انهُ انما يتحمل عاقبة عمله الخاص لا نتيجة تكديره المعلم

(٦) ان المعلم يحب طبعاً التلامذة يحبونهُ ولكن اياهُ وان يظهر ميلهُ هذا لئلاَّ يتلاشى سلطانهُ ويتهم بالمحاباة

(٧) ان عدم تأثير المعلم بالتلامذة ناتجٌ عن نقص فيهِ . فهم قد يريدون من كل القلب ان يفعلوا المستقيم ويتقدموا في دروسهم الاَّ ان عجز المعلم الاداري يقف في سبيل ذلك . وان التوبيخ والتعنيف والانتهار والقصاص بالضرب كل ذلك لا يقوم مقام الاقتدار على التربية والتنظيم

(٨) تجنب التهديد لانهُ يندر خروجهُ الى حيز الفعل والتوبيخ اللطيف من الفعل القصاصات غير انهُ يلزم ان يكون على انفراد لئلاَّ يؤدي الى المقاومة علناً

(٩) اذا كان المعلم يعاقب اليوم على ما يتساهل بهِ غداً فلا يتوقع احترام التلامذة لهُ

(١٠) ان الذين يظنون ان السلطة تستدعي ظهور المتسلط دائماً بمظهر الخشونة والصرامة هم في غلط مبين . فعلى المعلم ان يظهر بمظهر التبسم والمؤانسة

(١١) على المعلم ان يدرك ما يحتاجهُ تمام الادراك وعليهِ ان يستعد خصوصاً لكل درس وان يكون ذا نشاط فيضع جدة للمواضيع القديمة بحسن اساليبهِ

(١٢) اذا كان المعلم يشرح للتلامذة دروسهم وهم غير مصغين اليهِ فاللوم عليهِ لانهُ لا بد من وجود نقص في شرحهِ . فعليهِ ان يجري في الشرح على طريقة يشغل بها كل التلامذة

(١٣) ليحذر المعلم من اعطاء مثائل طويلة . لان عدم اتقان درس المثالة يضر بعقل التلميذ اذ يعودهُ على الاغلاط فتقل اهمية التسميع عندهُ ويفقد اعتبار نفسهِ . ولا ينبغي توجيه الاسئلة الى الاذكياء اكثر من البلداء بل بالعكس

(١٤) ينبغي تعيين المثالة للصف قبل انصرافهِ على طريقة صريحة بحيث لا يحتاج التلامذة الى مراجعة المعلم بقولهم اين اوما هي المثالة

هذه بعض ارشادات وهي قليل من كثير مما ذكرهُ ارباب هذا الفن وهي تنطبق على اختبارات المعلمين اليومية

جرجس الخوري
المقدسي